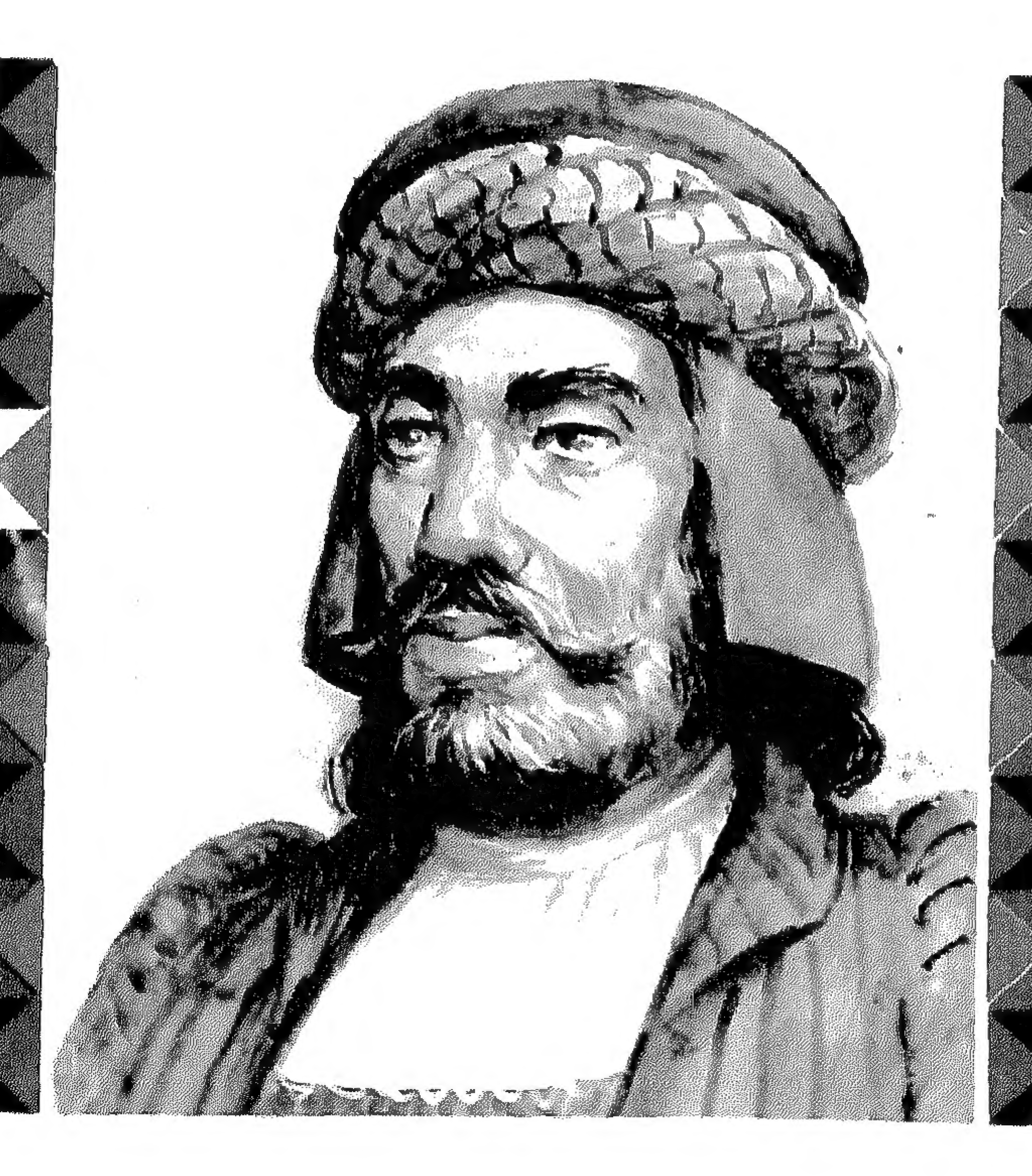
علماء العرب

٢٤

الوزّان

رائد الموسوعات الافريقية



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب
(٢٤)

الوزّان

رائد الموسوعات الافريقية

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الطبعـة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

النـاشر : مركز الأهـرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهـرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان



الكتّاب

ضُحَى يومٍ ربيعيّ كان « محمد الزيّاتي الوزان » جالِساً مع زوجتِه « سلْمى » وابنِه « الحَسن » وابنتِه « مريم » ، فى شُرفةِ بيتِه بمدينة « فاس » . كانُوا يتَناولونَ طعامَ الإفطار . وكانَ الطعامُ خبزاً صغيراً مقليًّا بالسّمنِ ، ومحلًّى بالعسلِ ، ولحمَ ماعزٍ

مشوِيّ . وكانتْ تهبُّ على الشرفةِ البيضاءِ مع النسيمِ ، روائحُ الزهورِ من الورودِ والفُلّ والياسَمِين .

وقال الحسنُ بحزنٍ لأبيه :

— ماتتْ جدّتى ، يرحمُها الله ، منذُ شهورٍ . ولم أعُدْ ، أنا وأختِي ، نجدُ مَن نلعَبُ معَه فى النهارِ ، ويحكِي لنا الحِكاياتِ فى اللّيْل . ونُرِيدُ الذهابَ إلى الكُتّابِ ، لنحفَظَ القرآنَ ، ونتعلمَ القراءةَ والكتابةَ والحِسَابَ .

وكانَ الحَسن قد بلَغَ من العُمرِ سبْع سنواتٍ . وظهرَ الفرحُ على وجهِ الأبِ ، وقبّل الحَسنَ ، وقالَ له :

— اليومُ يومُ الجمعةِ ، وغداً أصحبُكما إلى أفْضلِ كتاتِيبِ فاس .

عِندئذٍ تصايحَ الحسنُ ومريمُ فرحاً ، وجرَيَا معا لِيلعَبا فى حديقةِ البيتِ ، ويطاردَا الفراشَ .

وقالَ محمدٌ لسَلْمى :

— على بعدِ ستةِ أميالٍ من فاس ، توجَدُ أرض بلا زرْعٍ ، وبالقربِ منها مجرى ماءٍ ، وبها قصر مهجور ، وقد قررتُ شِراءَ هذَا القصرِ ، وتلكَ الأرض ، وزراعَتها بالزيتونِ والموالحِ

(الفواكه) من بُرتقال ولَيْمونٍ . ثم نَدّخُر مايَبْقى معَنا ، من المالِ الذى نجحْنا فى الهُروبِ به من غِرنَاطَةَ (بالأندلس) ، قبل أربَعِ سَنواتٍ ، بعدَ سقوطِها فى يدِ الفِرنْجَةِ .

فقالتْ سَلْمى لزوجْها :

ــ لِي شرطٌ واحدٌ يا أبَا الحسنِ ، ألاّنذهبَ إلى تِلكَ الأرضِ إلاّ فى الصّيْف لنعيشَ معكَ شهورَ الحرّ . وأبقَى أنَا مع الولديْنِ فى فاس ، بقيّةَ شهورِ العامِ ، من أجلِ الحسنِ ومريمَ ، والكُتّابِ .

فقال محمد لزوجتِه :

ــ ذلكَ ماعزمْتُ عليه ياسَلْمى ، فلا يُوجَدُ كُتَّاب فى هذِهِ الأرضِ البعيدةِ عن فاس .

صديق العمر

فى الكُتّاب ، تعرّف الحسَنُ ومريمُ ، على زميلِهما الصبىِّ « هارون » . وكان هارون ابناً لحمّال . وبيْنَ الثلاثةِ نَمتِ الصداقةُ مع الأيامِ ، وصارَ الحسنُ يقضِى بَقيّةَ النهارِ بعدَ الخروجِ من الكُتّاب ، والغداءِ فى البيت ، مع هارونَ ، الخبيرِ

بمدينةِ فاس . ويقضِيان النهارَ معا فى التجوُّلِ بشوارعِ فاس ودُرُوبِها ، وأزقّتِها وحاراتِها .

وكان هارونُ ذَا فُضُولٍ شدِيدٍ ، لمعرفةِ كل شيءٍ بفاسَ ، وعن أهلِ فاسَ ، حتى قال له الحسنُ يوماً ، وهو يضحكُ :

ــ سأسمّيك « هارُون المنقِّب » ، لأنّك تنقِّبُ عن كلِّ شيءٍ ، وتبحثُ عن كلِّ شيءٍ .

وسعِد كل من الحسَنِ وهارُونَ بصُحبةِ الآخرِ وصداقتِه ، وهما لايدريان أن صداقتَهما ستكونُ صداقَةَ العُمرِ .

وكانتْ فاسُ آنذاك ، ذاتَ موقعٍ هام ، على مُفترقِ الطرقِ ، بين الرِّبَاطِ وطَنْجَةَ ومرّاكِشَ . وكانت تتكوّنُ من مدينتيْن ، إحداهُما صارتْ أطلالاً مهجورةً ، عُمرها سُبعمائةُ عامٍ ، والأُخرَى حديثةٌ عمرُها مائتا عام . وكانتْ ، فى القرنِ السادسِ عشرَ الميلادِىِّ ، عامِرةً بالأسواقِ والحِرَفِ ، والتّجاراتِ والحماماتِ ، والمسَاجِدِ الكبيرةِ والصّغيرةِ ، والخاناتِ (الفنادق) والمدارسِ ، وكانتْ لها ضاحِية يسكنُها قبائِلُ من البَرْبَرِ ، وأهلُ الأندلسِ اللاجئونَ ، القادمُونَ من مدائِنِ الأندلُس ، فِراراً من بَطْش الأسبانِ ، منذ سقُوطِ غِرناطةَ ، فى يد « فرناندو وايزابيلاّ » ، عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ واثنينِ وتسعينَ



ميلادية . وفى تلك الضاحيةِ كان بيتُ المهاجرِ اللاجئُ « محمد الوزّان » .

جامع وجامعة

كانَ الحسنُ قد بلغَ من العمرِ عشرَ سنوات ، حين أتَمّ حِفظه للقرآنِ الكريمِ ، وأجادَ القراءةَ والحِسابَ ، وأقامتْ له الأُسرةُ ، ولأختِه مريم ، حفلاً صغيرا ، حضره الأقاربُ والأصْدقاءُ . وَوُزِّعَت الهدَايا والصدقاتُ على الفُقراءِ .

وبعدَ يومينِ كانتِ الأسرةُ كلُّها تقضِى الصيفَ ، فى القصرِ الذى صارَ عامِراً ، والأرضِ التى اخضرّت بالزروع ، وتوّجت أغصانَها زهور مختلفةُ الألوانِ ، وثمار متعدّدةُ الأشكالِ والأحجامِ . وكان الحسَنُ سعيداً بأنينِ الساقية ، وهِىَ تدورُ وتدورُ ، وتروِى الأرضَ بمياهِ المجرَى .

ومرّت شهورُ الصّيفِ ، وعادتِ الأسرةُ سعيدةً إلى فاسَ . وقالَ الأبُ للحسَنِ ، ومريمِ :

ـــ غدا ، سنذهَبُ مع اللّيلِ يابنّى ، إلى جامِعِ القرويّين ، لتتعلمَ على أيدى علمائِه ، ماتشاءُ من علومِ الدّنيا والدين . وستبقَى مريمُ مع أُمِّكَ فى البيتِ ، تساعِدُها فى أعمالِه .

وفى الغد ، وقد لاحَتْ فى سماءِ فاسَ سُحُبُ الخريفِ ، دخلَ الحسنُ مع أبيه جامِعَ القرويّين فرِحاً وخائِفاً . وراحَ أبوه يطوفُ به أرجَاءَ المسجدِ الضخْم . وكانتْ مساحتهُ ميلاً ونصفَ ميلٍ مُربّعٍ ، ولهُ ثلاثةَ عشرَ بابا ضخماً .

وقالَ الأبُ للحسنِ ، مشيراً إلى جهاتِ المسجدِ الأربعِ :

ـــ هاهُنا ، جهةَ الشمال ، يجلِسُ علماءُ اللّغةِ ، وهاهُنا ، جهةَ الجنوب ، يجلِسُ علماءُ الدّين ، وهاهَنا ، وهناكَ ، جهتَىْ

الشرقِ والغربِ ، يجلسُ علماءُ العُلُوم العقليةِ والطبيعِية . وإذا كنتَ تريدُ حقًّا أن تكونَ عالِما ، فاختَرْ لنفسِك ماتراهُ من العُلُوم . وأنتَ وجهدَك في العِلْمِ .

وراحَ الحسنُ يتأمّل الحصرَ الملونةَ على الجدرَان ، والمقاعدَ المزخرفةَ بالصَّدفِ .

وقالَ الأبُ لِلحسن :

ـــ فى الصيف والخريف ، ستكونُ دراستُكَ عقِب صَلاةِ العشاء ، إلى الساعةِ الواحدةِ والنصفِ ليلاً . وفِي الشتاء والربيع ، ستكونُ دراستُك من شُرُوقِ الشمسِ إلى الواحدةِ والنصفِ ظهراً .

الرحلة الكبرى

وكانَ الحسنُ قد بَلغ من العمرِ سبعةَ عشرَ عاما ، حين أتمّ دراستَه للنحوِ والصرف ، وعروضِ الشعر (أوزانه) وقوافِيه (أواخره) ، والأدبِ والتاريخِ ، والفلْسفةِ والمنطِقِ وعلومِ الشّرِيعةِ ، دون أن يُجاز فى أى علمٍ منها .

وذهَبَ الحسنُ لزيارةِ خالِه ، فوجَده يستعدُّ لسفرٍ طويلٍ . وقالَ لهُ خالهُ :

ـــ كلّفنى سلطانُ فاسَ ، بمهمةٍ سياسيةٍ فى « تومبكتو » (مدينة بجمهورية مالى بوسط افريقيا) وهى رِحْلَة كُبْرى ، فإذا شِئتَ أن تصحبَنى فى رِحْلتِى هذه ، وتَرَى بلاداً لم تَرَها ، وزنُوجَ افرِيقيا ، فاذهبْ واستأذِنْ أَبَاك ، فقد نَبَت لك شارِب ، وصارتْ لك لِحية ، واستعِدَّ للسفرِ بعدَ أسبوعٍ .

وأذِن الأبُ للحسن بالسفرِ مع خالِه ، وقالَ له :

ـــ كبُر خالُك فى السن . فسافِر معه لِترعَاه ، وتُحَقِّقَ أُمْنِيتكَ .

مع أوائِلِ الخريف ، غادرتِ القافلةُ السُّلطانيةُ مدينةَ فاسَ . كانتْ قافِلةً كبِيرةً ، بها حَمَّالُون وأدِلاء ، وفُرْسَانٌ للحراسَةِ . وكان الحَسنُ وخالُه جالسَيْن فَوْقَ سَنَامَىْ جملَيْنِ ، يسيرانِ فى مُقدمةِ القافلةِ السُّلطانيةِ . وقالَ الخالُ للحسَنِ :

ـــ افتحْ عينيْك جيّداً . ودوِّن ملاحظاتِك حَوْلَ كل ماتراه ، إذا كنت تُرِيدُ حقاً أنْ تكونَ مثلَ ابنِ بطّوطة .

وعندَ سفْحِ جبالِ الأطلس ، دُهِشَ الحسنُ لرؤيتِهِ أهلَ مدينةِ « سفْرُو » فى ثِيابٍ مُتَسِخة . وقال له خالُه :

ـــ أهْلُ سِفرُو أغنياء ، لكنّهم لجأُوا إلى هذاَ المظهرِ السّيِّئ ،

منذُ أن أرهقَهم أميرُ سِفرُو بالضرائبِ ، فتظاهَرُوا بالفقرِ وسوءِ الحالِ .

وفى الممرّ الجبلِىّ بجبالِ الأطْلس ، رأى الحسنُ غابةً ممتدّة ، ظلّ يراها من حولهِ طَوَال يومَيْن ، إلى أن شاهدَ مدينةَ نُميديَة . وكانتِ المدينةُ قد صارتْ أطلالاً ، وكانتْ من قبلِ الاسلامِ ، مدينة لعبَدة الأصنام .

وفى اليوم الخامس ، رأى الحسنُ قريةَ « الآبارِ المائة » . كانتْ قريةً حافِلةً بالآثارِ القديمة ، وبجوارِها كانتْ آبارٌ عميقة ، تبدُو بدَرَجِها (سلالمها) وكأنّها مغارات وكهُوف . وقال للحسنِ تاجرٌ جِنْوىٌّ (من جِنوه) عجُوز ، التحق مع سواه من التجارِ بالقافلةِ :

ــ إحدَى هذهِ الآبارِ مكونٌ من طَبَقَاتٍ ، وبداخِلها حُجْرَات مُسَوَّرَة مُرتّبة وكان أهلُ فاسَ يدخلُونها ، ويبحثونَ فيها عن الكنوزِ والذهَبِ . كانوا ينزلُون إليها بالحبالِ والفوانيس . وكثير منهم لم يعودُوا منها قَطّ ، فقد قتلتْهم الحيّاتُ والأفَاعِى ، أو اختنقُوا داخلَها بالهواءِ الفاسِد .

قرية الكتب

في اليومِ السّابعِ ، رأى الحسنُ مجْرَى ماءٍ آسِنٍ (راكد وفاسد) بموضعِ « أُمّ جُنَيْبَة » يحُوم حولَه البعوضُ والحشراتُ .
ودُهِش الحسنُ حينَ رأى كلَّ رجالِ القافلةِ ينزلُون عن دَوَابِّهم ، ويسيرُون مُسْرِعين ، فى حركات قفزٍ ورقْصٍ يُمنةً ويُسرةً ، وقال دليل بالقافلةِ للحسَن وخالِه :

— انْزِلا ، وافعلاَ مثلما نفعَل ، وإلا أُصِبْتُما بالحُمّى الرباعِيّة .

ونزَل الحسنُ عن جملِه ، وسارَ مثلَ سَيْرِهمْ ، لكن خالَه رأى هذا السّلُوكَ صِبيْانياّ ، لايليقُ بمبعوثٍ للسّلطان ، وراحَ الحسَن يبذلُ كلّ جهدِه لدفعِ البعُوضِ عن وجهِه ويديْه ، طَوَالَ الطريق ، حتَى اجتازَ هذَا المكان .

وفى أَعْلَى جبالِ الأطلسِ ، هَبّتْ رِيح خريفيَّةٌ شماليةٌ قارِسَةٌ (شديدة) البردِ . وعندَ قِمّةٍ جبليّةٍ ، كانت قريةٌ تقيمُ بها قبيلة مُسْتَازَة . وقالَ التاجر الجِنوِيّ للحسَن :

— هذِه القبيلةُ قبيلةٌ قارئةٌ كاتبةٌ ، تنسخُ الكتبَ بأجملِ الخطوطِ ، على أَجْود الورَقِ ، وتُجلّدُه بأرْقَى الجلُودِ .



وسارَع التاجر الجِنْوِىّ بشراءِ مائةِ كتابٍ من كُتُبِ « مُستَازَةَ » الفاخرةَ الفَخْمة ، قائِلاً للحسَنِ :

ـ الاتّجارُ بالكتبِ فى الشرقِ وافريقيا مُربِحٌ للغايةِ ، ولسوفَ أبيعُ ما اشتريته إلى عُلَماءِ الزّنج وأعيانِهم فى « تُومْبُكتو » . ولسوفَ أشترِى مثلَها فى العودةِ لأبيعها بفاس .

ـ وذهبَ الحسنُ مع التاجرِ الجِنْوىّ إلى وكيله بالقرية ، فرأى منزله حسنَ البناءِ فى القمةِ الجبليةِ ، وقد فُرِشتْ أرضُه بالبُسُطِ الصُّوفيةِ ، والسجاجيدِ الزاهيةِ الألوانِ ، وكُسِيتْ جُدْرانُهُ بالرخامِ ، والقاشَاني الملون . وقالَ صاحبُ البيتِ للحسَن :

ـ من مِنَنِ (نِعَم) الله علينا ، أنّنا نعيشُ فى جَبَلٍ ، يمنحُنا الحريةَ والحمايةَ ، وعلى طريق يجلبُ لنا الغِنَى والمعرفَة . ولا أمَير علينا من سلطانٍ ، ولانخافُ نهْبَ البَدْوِ والبربر .

مرض الخال

وعندَ نهرِ « زيز » عَبَر الحسنَ جبالَ الزّيز ، فى أرض قبيلة « زَنَاغَا البربرية » ورأى الأفاعِيَ وهى تَزْحَفُ وادعةً أليفةً بين

البيوتِ ، معَ القِططِ والكلابِ ، وتأكلُ من أيدِى الناس فُتاتَ الخبزِ ، دونَ أن تصيبَهم بأذَى .

وانحدرتِ القافلةُ من جبالِ الزِّيز ، فرأى الحَسنُ عدداً لايُحصَى من النخيل ظلّ ممتدا على الجانبين ، فى الطريق إلى سَهْلِ « سِجْلمَاسة » ونزَلتِ القافلةُ فى هذا السهلِ لتستريحَ ، وكان الحرّ شديداً ، والعرقُ يتفصدُ من جلودِ الناسِ والخيلِ والجِمال .

وقُدّرَ للقافلةِ أنْ تبقَى فى مكانِها ثلاثة أشهر ، بدلاً من ثلاثةِ أيام ، فقد مرِضَ خالُ الحسنِ بالحُمّى الرباعيةِ ، من لَدْغِ البعُوض له ، فى « أم جُنَيْبة » ، وراحَ الحَسنُ يتجولُ خلالَ هذه الشهورِ فى مدينة « سجلماسة » . كانَ أكثرُ عمرانها قد صارَ أطلالاً ، تكسُوها الطحالِبُ والأعشاب ، وقد أصبحَ الناسُ عشائِرَ متناحِرةً ، فى القُرى المحيطةِ بالمدينةِ ، يُتْلِفُ بعضُهم أراضِيَ البعضِ ، ويُدمّرُ منازِله ، ويَطُمّ (يرْدِم) آبارَه .

وأفَاق الخالُ ذاتَ صباح ، وقدْ توقّف أنينُه ، وسَلُسَ كلامُه ، وتحَسّنتْ حالُه ، فأصدَرَ أمرَه بالرحيلِ ، لكن القافلةَ لم تتحّركْ من مكانِها ، فقد راحَ الخالُ مرةً أخرى فى غيبوبةِ الحُمّى ، ومرتْ شهور أُخرى ، والقافلة فى مكانها .

نصف قدح ماء

مع بدايةِ الربيعِ ، استعادَ خالُ الحسن صِحّته ونشاطَه . فرحَلتِ القافلةُ ، مُجتازةً صحراءَ « نُمَيدية » طَوَال مائتى ميْل ، فى رمالٍ طاغيةِ الشمسِ ، قليلةِ الماءِ ، فقيرةِ الموارد ، والحراسُ يصطادُون مايصادفُونه من النّعام والغِزْلان ، لإطعام المسافرين .

واجتازتِ القافلةُ مدينة « طَبلَبَالة » ، حتى وصَلت إلى مدينة « أُورْزَازَات » وبعثَ أميرُها يدعُو الخالَ لزيارتِه ، فاعتذَر عنِ الذهابِ ، وأرسلَ إليه بالحَسن بدلاً مِنه ، ومعهُ هداياَ للأمير : كتاب عن أولياء أفارِقةٍ ، وحبلانِ من حرير ، أحدُهما بَنفسجِى ، والآخرُ أزْرَق ، ومضفُورانِ بخيُوط الذهَبِ ، ومهمازان رائعانِ ، ورِكابَان (سِرْجَان) مُزيّنانِ على الطريقةِ المغربيةّ . وعادَ الحسنُ إلى خالِه بعدَ أربعة أيام ، وقد أهداه الأميرُ حِصَاناً جميلاً ، وأعطاهُ خمسين ديناراً ذهبياً له ، ومائةَ دينارٍ ذهبىّ لخالِه .

وواصلِت القافلةُ سيْرَها على خطِّ القوافلِ ، وتزوّدتْ من وَاحَتَىْ :« تُوَات » و « غِرَارَة » بالطعامِ والماءِ ، فى طريقِها إلى مدينة « تَفَازَة » . وكانت « تَفازةُ » محاطةً بمناجمِ المِلح ،

وسرعانَ ما انْضمَّ إلى القافِلةِ تُجارُ الملحِ بجمالِهم ، وكان كلُّ جملٍ يحملُ أربعَ زكائِبَ من المِلح ، لبيعها فى مدينةِ « تومبكتو » .

واستأنفَتِ القافلةُ سيْرَها فى جحِيمِ الصحراءِ المغربية ، فلا شيءَ بها سِوى الحرِّ ، ووهجِ الشمسِ والأُفاعى ، وعظامٍ من هلكَ من الجمالِ والمسافرين . وفوقَ شاهدِ قبريْنِ قرأ الحسنُ قصةً عجيبة :

« هنا يرقُدُ رجُلانِ : أحدُهما غنِىّ والآخرُ فقيرُ لايمِلكُ سِوَى نِصْفِ قدحٍ من الماءِ . وكانَ كِلاهُما ظامِئاً . فاشتَرَى الغنِي من الفقيرِ مامعَهُ من ماءٍ ، بعشرةِ آلافِ دينارٍ ذهبِى . وعندما خطا كلٌّ من البائعِ والمشترِى نحوَ صاحِبه ، سقطاَ معا ميتيْن من العَطشِ » .

عندئذٍ صاحَ الحسنُ بمن فى القافلةِ :

ــ حافِظوا على الماءِ . قلّلوا الشرب منه ، إلى أن نجتازَ هذه الصحّراء ، ونصلَ إلى « تومبكتو » .



موكب الأمير

قُرب المغرِبِ ، عبرتِ القافلةُ أسْوارَ « تومبكتو » ، وقد تّقرَّحتْ (التهبت) عَيْنا الحسنِ من الرياحِ والأتربةِ والحرّ ، وتورّم فمُه من شُربِ مياه الآبار المالحةِ الطّعْمِ ، واتسخَ جسدهُ ، وبدَت « تومبكتو » لعيْني الحسنِ وكأنّها جنّةُ عَدن ، بعدَ رحلة دامت نحواً من عامٍ ، فى الجبالِ والغابات ، والصحارَى والواحات .

وأنزلَ فُرسَان تومبكتو الحسنَ وخالَه فى قَصرِ الضيافة ، بالقربِ من جامِعِ تومبكتو . وسارَع الحسن إلى الاغتسالِ والعشَاء ، وراحَ يغالِبُ النومَ وهو ينظُرُ من نافذةِ غرفته ، إلى ميدان المسجدِ الجامِع . وطار النومُ من عينى الحسَن ، حين رأى الميدانَ يمتلىءُ بالفِتيانِ والفتياتِ من الزنوج وهُمْ يرقصُون ويُغنون على دقات الطبُول ، تحيةً للوافِدِيْنَ من المغرب .

وفى الصباحِ قابَل الحسنُ مع خالِه أميرَ تومبكتو « الأسْكا محمد تُورى » ، فى قصرٍ فخمٍ . وكان حفلُ الاستقبال منظماً بدِقّة . وانفردَ الخال والأميرُ فى حديثٍ طويل .

وطَوَالَ ثلاثَةِ أسابيع ، راحَ الحسنُ يتجوّلُ فى شوارعِ تومبكتو ، وأسواقِها ، ويعودُ إلى غرفتِه مع الليْل ، ويُحدثُ خالَه عما رآه ، ثم يجلس ليُسجّل ملاحظاتِه عن المدينة وأهلِها ، فى ضوءِ مصباح . وخاصةً عن مشهدِ موكبِ أمير تومبكتو ، وهو ذاهب إلى الصلاةِ راكباً جملاً ، وحولَه خيولُ حاشيتِه ذاتِ السّروج المطعمة بالذّهبِ ، يقودُها خدم مُسلحّون بالسيوفِ .

ورأى الحسنُ فى مدينةِ « تومبكتو » كُلَّ أنواعِ السِّلَعِ متوفّرةً ، حتى الأقمشةَ الأوروبية المستوردةَ الغالِيةَ الثّمنِ . وكانَ أكثر أهلِها أغنياء ، خاصةً التجار ، وكان أميرُها يحيطُ الجميعَ

بالرّعاية . وكان الناسُ يتعاملُون بقطع الذهبِ الصافِى ، وليسَ بالنقودِ المسْكوكة . ومبالغُ العملةِ الصغيرةِ كانت أصدافاً بحريةً مجلوبةً من الهندِ وفارسٍ . وكانت نساءُ المدينةِ سافراتِ الوجُوه والأيدِى والأرجل ، ويشتَغلن بالتجارة فى الأغذيةِ من الحبوب والمواشِى ، واللبنِ والزُّبْد والملحِ . وكان الملحُ سِلْعةً نادِرةً ، ولنُدْرَتِه لاينثرهُ الناسُ على الطعام ، وإنما يحتفظُون بهِ فى أيديهم ، ويلحسُونه بألسِنتهم ، وهمْ يأكلون .

لابدّ من العودة

وعاودَ المرضُ خالَ الحسن ، فبعثَ الأميرُ بطبيبه الخاصّ لعلاجه . وكان الطبيبُ هَرِماً (عجوزا) ، ذَا لحيةٍ بيضاءَ ، تلْتفُّ مثلَ الطوقِ حولَ وجهِه وعُنقِه ، وكان قد قَرأ كتبَ الطبّ الشرقية والأندلسيةَ ، ويعرِف العربيةَ ، وأعدّ الطبيبُ لخالِ الحسَن علاجاتٍ من العقاقيرِ النباتيّة والحيوانيةِ والمعدنيّة .

ولم تتحسّنْ صِحّةُ الخالِ ، فقد راحَتْ تتدهوَرُ تدهْوُراً شدِيداً ، حتى يئسَ الحسنُ من شِفَائِه . ودعَا الحسن خالهُ ذاتَ صَبَاح ، وقالَ له :

ـــ اذهب برسالةِ سلطانِ المغرب ، إلى أمير تومبكتو ،

وأعطِها إليه ، ليرسِلَها إلى مَلِكِ مُلُوكِ الزّنُوج فى مدينة « غاو » ، فلا أظُنّ أنّنى سأستطيعُ السفرَ إليه ، فى مقرّ مُلكِه .

فنفّذَ الحسنُ مسرِعا ما طلبَه خالُه مِنه ، وحين عاد إليه ، قال له خالُه :

ــ بدأتْ بشائر الحرِّ مع الربيعِ ، ولسوفَ يستحيلُ علينا السفر قَبلَ الخريفِ ، إذا أجَّلنا عوْدَتنا . ولأبدّ من سفرنا غداً ، برغم مرضى ، فلا أستطيعُ أن أتغيّبَ سنتَين عن السّلطان ، فى مهمةٍ كانَ ينبغِي ألا تزيدَ عن ستةِ أشهرٍ . وقد نَفَدَ كلُّ مامعِى من مال ، وأُفضّلُ أنْ أموت بينَ أهْلى ، وفى وطنِي ، وليسَ فى أرضٍ غريبةٍ .

وفى الغدِ ، بدأتْ رحلةُ العودةِ إلى فاس ، عبرَ الطريقِ نفسه ، وكان الحسَن ، والتاجرُ الجنوى العجوز « توماسُّو مارِينو » قد أصبحاَ صديقَين حمِيميْن .

وفى اليومِ السابع ، عجزَ خالُ الحسنِ عن التماسك (الثبات) فوقَ ظهرِ جملِه ، فحملَه رجالُ القافِلةِ على مَحَفّةٍ مُريحةٍ . وفى الليلِ ، قالَ خالُ الحسن للحسن :

ــ خذْ هذه الوصية ، واحتفِظْ بها لتقرأها بعدَ موتِى ،

ونفّذ مابِها حرفاً حرفاً . وخُذْ هذا التقريرَ للسلطانِ ، وسلِّمه لهُ بيدِك ، عند وصولِك إلى فاس .

وفى تِلك الليلةِ ، أسْلَمَ خالُ الحسنِ روحَه إلى بارئِها ، فدُفِنَ فى الرمالِ على جانبِ الطريقِ ، عند « تَفَازَةَ » .

وفِي الصباحِ ، فتح الحسنُ وصيةَ خالِهِ ، فوجَده يكلفُهُ بقيادةِ القافلةِ من بعدِه ، والتضحيةِ بكلِّ غالٍ ورخيصٍ ، لِكَىْ تَصِلَ القافلةُ بسلامٍ إلى فاس . ولم يجِدِ الحسنُ مع خالِه سِوَى ثمانيةَ عشَرَ ديناراً ، هى كلُّ مابقَى منه لرحلةِ العودةِ ، ومعَها كانتْ هدايا أميرُ تومبكتو إلى سلطانِ المغرب .

زواج الصديقين

فى رحلةِ العودةِ ، اضطُرَّ الحسنُ إلى بيعِ ثلاثةِ جمال ، والجوادِ الذى أُهْدِىَ إليه ، والتخفُّفِ من المؤنِ ، والاستغناءِ عن خدماتِ أدِلاء وحمّالِين ، ومَنحَ بعضَ هدَايا السلطانِ إلى الأعيَانِ ، الذين كانوا يستضيفُون القافلةَ على الطريقِ .

ونجحَ الحسنُ فى الوصولِ بالقافلةِ سالمة إلى فاس ، وزَارَ بيتَ خالِه ، فاتشَح نساءُ البيت بالسوادِ حزناً على وفاتِه ، حين علمن بالخبر .

وفى اليومِ التالِي ، سلّم الحسنُ تقريرَ خالِه عن الرحلةِ إلى السّلطان ، وتلقّى عزاءَه هو وحاشِيَته . وأثنَى (مدح) السلطانُ على الحسنِ لنجاحِه فى رحلةِ العودة ، ولبلاغتِه وفصاحتِهِ فى مخاطبتِهِ . وأسْرعَ الحسنُ ليلتقِيَ بصديقِه هارونَ المنقّب ، وجلسَا معا فى بستانٍ من بساتينِ فاس . وقال الحسَنُ لهارُون :

ـــ سأتزوّج من فاطمةَ ابنةِ خالِي ، فهذا هو واجِبى لرعايةِ أسرتِهِ .

وانتهزَ هارُون هذهِ الفرصَة ، وحدّث الحسنَ عن رغبتهِ فى الزواجِ من أختِه مريم . وقبْلَ أن ينقضِى شَهران ، تزوّجَ الصديقانِ ، فى حفْلٍ واحدٍ .

ووجَد الحسنُ نفسَه مضطرا للعملِ ، فعمِلَ كاتِباً ومشرِفاً بمارَسْتَان (مستشفى) للمجانين . ومكثَ فى عملِه شهوراً قليلةً ، عانَى فيهاَ من الإرهاقِ ، فى تعامُلِه مع المجانِين . وعندئذٍ ، فكّر وقدّر ، وقرّر الاشتغالَ بالتجارة ، مثل ذلكَ التاجر الجنوىّ « توماسّو » فأسرعَ بالذهابِ إلى بيتهِ .

عاشق الأسفار

كان « تومَاسّو » على فراشِ المرضِ ، فقالَ له الحسنُ بعد حديثٍ طويلٍ معه :

ـــ إننى أعشَقُ السّفر ، وأحبُّ التجارةَ . وجئتُ إليكَ لأستعينَ بخبرتِك ، وأنا لا أعرِفُ فى التجارةِ شيئاً ، ولا أملِكُ لها مالاً ، وليسَ معِي سوى عزمِي وعقلِي .

فابتسمَ التاجرُ الجنوىّ العجوز « توماسُّو » وقالَ للحسن :

ـــ جئتَ فى وقتِكَ يابنّى ، وأنتَ فَتًى أمين . لقد وصلَتْ إلّى من ايطاليا واسبانيا طلبيّتانِ مهمتانِ لعَبَاءات مغربيةٍ سوداء ، من مدينةِ « تَفْزَة » . ويتحتم على أن أرسِلَ بألفٍ وثمانمائة عَباءَة إلى البلديْنِ . وحالتِي الصحية لاتسمحُ لى كما تَرى ، بالسفرِ . وقد بعثَ الله بكَ إلى لتقومَ عنّى بهذِه المهمة .

وقدّم « توماسُّو » للحسنِ ألفاً وثمانمائةَ دينارٍ ، ثمناً للعباءات ، ومائتينِ أجراً له ، وقال :

ـــ لو نجحْتَ يابُنَىّ فى شراءِ العباءات بثمن أقلّ فالفرقُ كلُّه من حقِّك ، ولو اشتريتَها بثَمنٍ أعْلَى ، فالفرقُ كلُّه ستدفعُه أنْتَ .

وقبِلَ الحسنُ القيامَ بهذِه الصفقةِ لتُوماسُّو ، وأعارَه « توماسُّو » جواداً ليركبه فى رحلتِه ، وخادمين لخدمتِه ، وتسعَ بغْلاتٍ لحمل زادِه وثيابه . وأوصاهُ بالإسراعِ والحذر .

وعلِم الحسنُ أنّ أهل « تفزة » بحاجةٍ للسيوف ، للدفاعِ عن أنفسِهم ضدَّ البرتغاليِّين ، الذينَ كانوا يعتدُون آنئذٍ على المغرِب ، ولأنهّم قد تمرّدُوا على أمِيرِ السلطانِ لظلمِه لهم ، وصارُوا يريدُون أميراً عليهم من بينهم . وجمَعَ الحسنُ كلَّ ما ادخرتْه أمُّه وزوجتُه من مالٍ ، واشترىَ بأربعمائِة دينارٍ أربعمائةَ سيفٍ ، ليبيعَها لأهل « تفزة » .

كن متواضعاً

مع شرُوق الشمس دخلَ الحسنُ مدينة « تفْزة » ، ونزلَ بخانٍ (فندق) متواضعٍ ، وسارعَ بعقدِ مزاد باعَ فيه سيوفَه الأربعمائِة بألفٍ وثمانمائةٍ عباءة سوداء جيدة ، فكسِبَ من صفقتِهِ ألْفى دينارٍ ، عليه أن يرُدّ منها أربعُمائِة لأمِّه وأختِه .

وفى الليلِ ، جاء إلى الحسنِ رئيسُ أعيانِ « تفزة » ، وطلبَ منه التوسّطَ لدى قائدِ جيشِ السلطانِ ، الذى وصلَ بجندهِ ، وحاصَر « تفزة » . وقالَ رئيسُ المدينةِ للحسنِ :

ـــ إذا نجحْتَ فى منعِ الصدامِ بينَنا ، وبين جِيشِ السلطان ، وفى إنقاذِ « تفْزة » من الدمارِ ، وأهلِها من القِتال ، وفى عزْلِ أميرها الحالِي الظّالمِ ، وفى توليةِ أميرٍ عادل علينا ، ومن بيننا ، فسوْفَ يدفعُ أهلُ « تفزة » للسلطانِ خراجاً (ضريبةً) مقدارُه عشرونَ ألف دينارٍ ذهبىّ ، فى كلِّ عامٍ .

ونجحَ الحسَن فى تفاوضِه مع قائدِ الجيش السلطانى ، فنجَتْ « تفْزةَ » من الحربِ ، وغُرِّم أهلُها أربعةً وثمانينَ ألف دينارٍ ذهبىّ ، دفعُوها لقائدِ الجيشِ ، عِقاباً لهم على تمردِهم ضدَّ السلطان .

وكسِبَ الحسن من هذه المهمة مالاً آخرَ ، منحهُ له قائدُ السلطان ، وهدَايا نفيسةً ، قُدِّمت إليه مِن أعيانِ المدينةِ . وعادَ سالِماً رابحاً إلى « فاس » ، يشعرُ بأن الدنْيا كُلَّها مِلْكَه ، فقد أصبحَ غنِياًّ من التجارة ، والمفاوضةِ . وكان يحرسُ قافلته الصغيرةَ ، فى العودةِ ، اثنَا عشرَ جندياًّ من جنود السلطان .

وأثْنَى « توماسُّو » على الحَسنِ لمهارتهِ التجارية والسياسيةِ ، وقال له :

ـــ ابتسمَ الحظُّ لكَ ياصديقِي . ولكنْ ، احْتَرِسْ . فالثروةُ والسلطة عدُوَّتَان لسلامةِ الرأْى . وتذكَّرْ أن سَنابلَ القمحِ

المنتصبة ، هي سنابل فارغة من الحبوبِ ، وأن السنابِلَ المحنيَّةَ هي وحدَها المْلأى بالحبوب ، فكُنْ متواضعاً دائِماً .

بسبب هارون

ومرّت شهور على أهلِ فاس ، استولَى فِيها الغزاةُ البرتغاليوُّنَ على مدينتَى : « وَهْران » و « بوُجِى » الساحِليّتين ، وكانت ثروةُ الحسنُ تتضاعف ، فعملاؤه يجوبُون مدائِن افريقية للبيع والشراء ، محّملين بالتمورِ ، النِّيلة (مادة زرقاء للصباغة) ، والحناءِ ، والزيُوتِ ، والأقْمِشة ، ولم يكنِ الحسنُ يغادِرُ فاسَ إلاّ فى تجارةٍ كبيرةٍ ، لبيع سلعٍ مجلوبة من أوربا ، أو لشراء سلعٍ مجموعةٍ من مدائِنِ المغربِ ، لإرسالِها إلى متاجِرِ المدنِ الأوروبية . وكان الحسنُ يقومُ أحياناً بمهام سياسيةٍ للسلطانِ فى أنحاءِ المغرب ، لتجميعِ القُوى المجاهدةَ ضدّ البرتغالِيِّن .

وكانَ الحسنُ قد بلَغَ من العمرِ أربعاً وعشرين سنةً ، حين تُوفيتْ زوجتهُ فاطمة ، وهى تضعُ ابنتَهما « ثروْة » ، فحزِنَ عليها الحسنُ ثلاثةَ أيامٍ . ثم فوجِىءَ بدعوةِ السلطانِ له ، فذهبَ إليه ، ووجدَه غاضِبا عليه ، لأنّ « هارونَ المنقّب » زوْجَ أختِهِ ، قد انضمّ إلى « عروج » زعيم الثائرينَ عليه فى مدينةِ

« تِلِمْسان » ، متهمين إياّه بالتهاوُن فى الجهادِ ضدّ البرتغاليين ، وبالعجْزِ عن تحريرِ المدُنِ الساحليةِ بالمغربِ من الغُزاة ، ومع أنّ الحَسنَ لم يكُنْ مسئولاً عما فعله « هارون » ، فقد أمرَ السلطانُ بنفيه عن المغربِ ، لمدةِ عاميْنِ .

وغادَر الحسنُ المغرِبَ ، يتبعُه رجالُه وحرّاسُه ، وإبل تحمِلُ سِلعَهُ التجاريةّ الأوربية ، متجهاً إلى الجنوبِ ، صوْبَ تومبكتو .

الطريق إلى المنفى

كانتِ القافلةُ تجتازُ ممرّ « الغِربان » فى جبالِ الأطلس ، متجهةً إلى مدينةِ « أورْزَازَات » وجاءَ الليل ، فتوقّف الحسنُ مع قافلتِه للراحة . وآثر أن يقضِيَ ليلته فى مغارةٍ ، فى ضوء فانوس ، بعدَ أن سَدَّ مدخلهَا بالأحجارِ . وكانتْ معه أغطية صوفيّة ، وقِرْبَةُ لبَن ، وقِربْةُ ماءٍ ، وقِرْبةُ تمرٍ ، وتركَ قافلته فى الخيامِ ، كى ينفرِدَ مع نفسِه ، وأوراقِه ، وقلمِه .

وفى الليلِ ، هبّتْ ريحٌ باردةٌ ، تحوّلتْ إلى عاصفةٍ ثلجية ، وظلتِ الريحُ تهبُّ طَوَال نهاريْنِ وليلتيْنِ ، حتى تراكَمَ الثلْجُ ، وسدّ بابَ المغارِة ، ونفَدَ وقودُ الفانُوس ، ودبَّ الخوفُ فى قلبِ



الحسنِ خوفاً على قافلِته ، ورجالِهِ ، ومالِهِ الذى يحرسُه حراسُ القافلةِ فى صناديقَ مغلقةٍ .

وصباحَ اليومِ الثالثِ ، سمِع الحسنُ رعاةً يُزيلون الثلوجَ عن مدخَلِ المغارةِ ، ليحتمُوا بها من البردِ والثلجِ . فسارَع الحسنُ ، فورَ دخولِهم ، يطلبُ ضيافتهم له ، وحمايتَهم إيّاه ، إلى أن يتَمكّن من العودةِ إلى قافلتهِ ، ومواصلَةِ رحلتهِ .

ضياع الثروة

وحينَ هدأتِ العاصفةُ ، وغادرَ الحسنُ المغارةَ مع الرعاةِ ، وجدَ خيامَ معسكرِه ، على بعدِ نصفِ ميل ، وقد تناثرَتْ ، ودُفِنتْ هِيَ ومن كانَ تحتَها من رِفاقِ القافلةِ تحتَ الثلوج ، ومعَها أموالُه وزادُه وبضائِعهُ . عندئذ صاحَ الحسنُ قائلاً للرعاةِ ، وهو يريهم كلَّ ما كانَ فى جيبِه من مالٍ :

ـــ هذا هُوَ كلُّ مابقِىَ معي من مالٍ للرحيلِ إلى بلادِ النيل : ديناران ، وخمسةَ درَاهم . وتحتَ هذه الثلوجِ ترقُد صناديقُ لِي ، بها مائة وعشرون ألفَ دينارٍ ذهبيّ .

وصحب الرعاةُ الحسنَ معهم إلى قريتِهم ، قريةِ « داراً » وكانتْ قرية تحيطُ بها أشجارُ النيلة .

وكان زعيمُ القبيلة الرعويةِ بقريةِ « دارًا » رجلاً أسودَ البشْرةِ ، وسيمَ الملامِحِ ، ذا لحيةٍ تشبُه العقدَ . وقال زعيمُ القبيلةِ للحسنِ :

ــ سنجمَعُ لك عشرينَ ألفَ دينارٍ ذهبىّ ، تعينُك فى رحلتِك ، على أنْ تترُكَ لنا صناديقَ أموالِك التى تحتَ الثلوُج ، فتصبحَ مِلْكا للقبيلةِ حينَ يأتِى الربيع ، وتذوبُ الثلوجُ .

وقَبِلَ الحسَنُ عرضَ زعيمِ القبيلةِ مضطراً وشاكِراً . ونَعِم بكرمِ الضيافةِ أياماً . وفى اليومِ الرابع ، زوّده الزعيمُ بحِصانٍ وإبلٍ تحملُ له زادَه وشرابَه ، وأعطاهُ ماوعدَه به من مالٍ . وصَحِبه فرسان من القبيلة ، وساروا معه مسافةً طويلة . وواصلَ الحسنُ رحلته إلى « تومبكتو » ، فى قافلةٍ صغيرَة ، لاتحمِلُ أىَّ سلعةٍ للتجارةِ .

فى ممالك الزنوج

ولم يكدِ الحسنُ يستقرُّ بمدينةِ « تومبكتو » سِوَى ساعاتٍ ، حتى شَبَّ حريقٌ هائِل ، امتدّ من الغابَاتِ إلى المدينةِ ، فأسرَع الحسنُ بمغادرةِ تومبكتو ، مع قافلةٍ هاربَةٍ من الحريق متجهة شرقاً ، بمحاذاةَ نهرِ « النيْجر » ، فى وسَطِ افريقيا ، وكانَ بالقافلةِ

أربعُون تاجراً من جميع الأجناس ، فى طريقِهِم إلى مملكةِ « غاو » .

ودخَل الحسنُ مع القافِلة مدينة « غاو » ، وأدهشَه مارآه بها من ثراءٍ ، ووفرةٍ فى الحبوبِ والفواكهِ والخضرواتِ ، ورأى لأول مرة ، ملكَ ملوكِ الزنوج ، فى موكبٍ مَهيبٍ ، وسيُوفُ فرسانه مرصعةٌ بالجواهرِ ، وسرُوجُ خيلِهِ ، وألجمتُها ، مثل أوانِى قصرِه ، وسلاسلِ كلابِهِ ، من الذهَب الخالِص .

وسعَى الحسنُ لمقابلةِ ملكِ الملوكِ ، وذكّره بالرسالةِ التى كانَ سلطانُ المغرِب قد بعَث إليه بِها مع خالِه ، وأخبره بوفاتِه فى طريقِ العودة ، فأظهَر ملك الملوك حزنَه عليه ، وأكرمَه إكراماً بالِغا ، وزوَّدَهُ بمالٍ وخيلٍ وإبل ، ليواصلَ رحلتَه شرقاً فى ممالِك الزنُوج ، إلى أنْ يبلُغَ وادِى النيل .

واجتازَ الحسن فى رحلتِه خمسَ عشرةَ مملَكةً زنجيَّةً ، هى ممالِكُ : ولاتَه ، وغِنيا ، ومالى ، وتونبكتو ، وجُوجو ، وجُوبر ، وأجادِز ، وكانُو ، وزِجيزج ، وكافْسِينا ، وزَمْفَرا ، ووُنجرا ، وبُورْنُو ، وجَاوْجُو ، ونُوبِي .

وسجّل الحسنُ فى أوراقِه ، فيما سجلَه عنها : « إن حكامَ هذه الممالِك وسكانَها ، على قدرٍ كبيرٍ من النشاطِ والثراء . وهُمْ

شغوفُون (محبّون) بإقامةِ العَدَالة ، غير أن طوائِفَ منهم تحيا نوعاً من الحياةِ الهمجيّة » .

وطوالَ رحلةِ الحسنِ ، عبرَ هذه الممالِك ، ظل يُمارِسُ الاشتغالَ بالتجارةِ ، إلى أن بلغَ وادِى النيل ، بالسودانِ ، وصار وافرَ الثراءِ ، مِثلما كان .

أم الدنيا

بلغَ الحسنُ مدينةَ « دنقلة » بمملكة النّوبة ، على ضِفّةِ نهرِ النيل . وحين رأى مياهَ النيل ، انبطحَ على وجهِه ، يشربُ من مائِه العذب ، حالِماً بالرحيلِ مع تيارِه إلى القاهرةِ ، أمِّ الدنيا فى زمانِها . وواصَلَ الحسن سيره بقافلتِه براً ، محاذِياً النهرَ ، إلى أسوانَ . ففارقَه أكثرُ رجالِه ، وركِبَ مركباً مسطحاً ، محملاً بالحبوبِ والماشية ، أبحرَ به شمالاً فى نهرِ النيل ، حتى وصل إلى ميناء حى مصرَ القديمة الصغير . وكان الحسنُ قد بلغَ من العمرِ ستا وعشرين سنةً .

وكانَ وباءُ الطاعُون يجتاحُ القاهرةَ ، وسكانُها يفرّون منها ومن الوباءِ فرارا ، فى البرِّ إلى جنوبىِّ سيناءَ ، وفى النيلِ إلى صعيدِ

مصر ، لكن الحسنَ كان قد قرَّرَ البقاءَ ، برغمِ الوبَاء ، فى القاهرةِ ، بخيرِها وشرِّها ، مواجهاً قدرَه ومصيرَه .

وتعرَّف الحسَنُ فى الميناءِ الصغير ، إلى رجُلٍ قاهرى غنىٍّ يعتزمُ الهربَ مع أهلِ بيته إلى صعيد مِصر . وأحبَّ هذا الرجُل الحسنَ ، فأعطاه عنوانَ بيته بالقاهرة ، ومِفتاحَه ، لِيسكُنَ فيه إلى حينِ عودتِه ، وكتَبَ له سطوراً إلى بوابِ هذا البيت ، ليسمحَ له بالسكَن في بيته . وكان سلطانُ مصرَ آنذاك ، هو « قانصوه الغورى » وكان منْع التجولِ مفروضاً على أهلِ القاهرةِ ، من الغروبِ إلى شرُوقِ الشمس .

واعتادَ الحسنُ أن يتجول بالمدينةِ الموبوءَةِ على ظهرِ حِمار ، جالساً فى ثيابِه المغربية ، فوقَ سِرْجٍ مُطرّز ، وصبى يقودُ له حمارَه ، فى طرقاتِ القاهرة ، وأحيائِها .

ومن جديدٍ ، واصلَ الحسنُ فى القاهرةِ تجارتَه . وبدأ بإرسالِ قافلةٍ من الحريرِ الهندىّ ، والتوابِل ، إلى مدينة « تِلمْسان» (بالجزائر الآن) فوقَ الجمالِ ، وتلقّى منها صندوقاً من العنبرِ باعَه بحّى الأزْهر ، وكسِبَ فيهِ مالاً وفيرا . ولم تمرّ بضعةُ أشهرٍ ، حتى كانَ الحسنُ قد صار من أعيانِ القاهرة ، فأقام بمنزلٍ يطلُّ على النيلِ ، بحّى الرّوضة ، وخلعَ زيَّه المغرِبىّ ،

وارتدى الزِّىَّ المصرِىّ ، ثوباً مُقَلَّماً بالأخضرِ ، ضَيّقاً عند الصدرِ ، مُنسدِلاً باتساعٍ نحوَ القدمْين ، وعلى رأسِهِ عمامة عريضة ، من الحرير الهندى . ووثّق الحسنُ علاقَتَه بقصرِ سلطانِ مصر .

زوجة جركسية

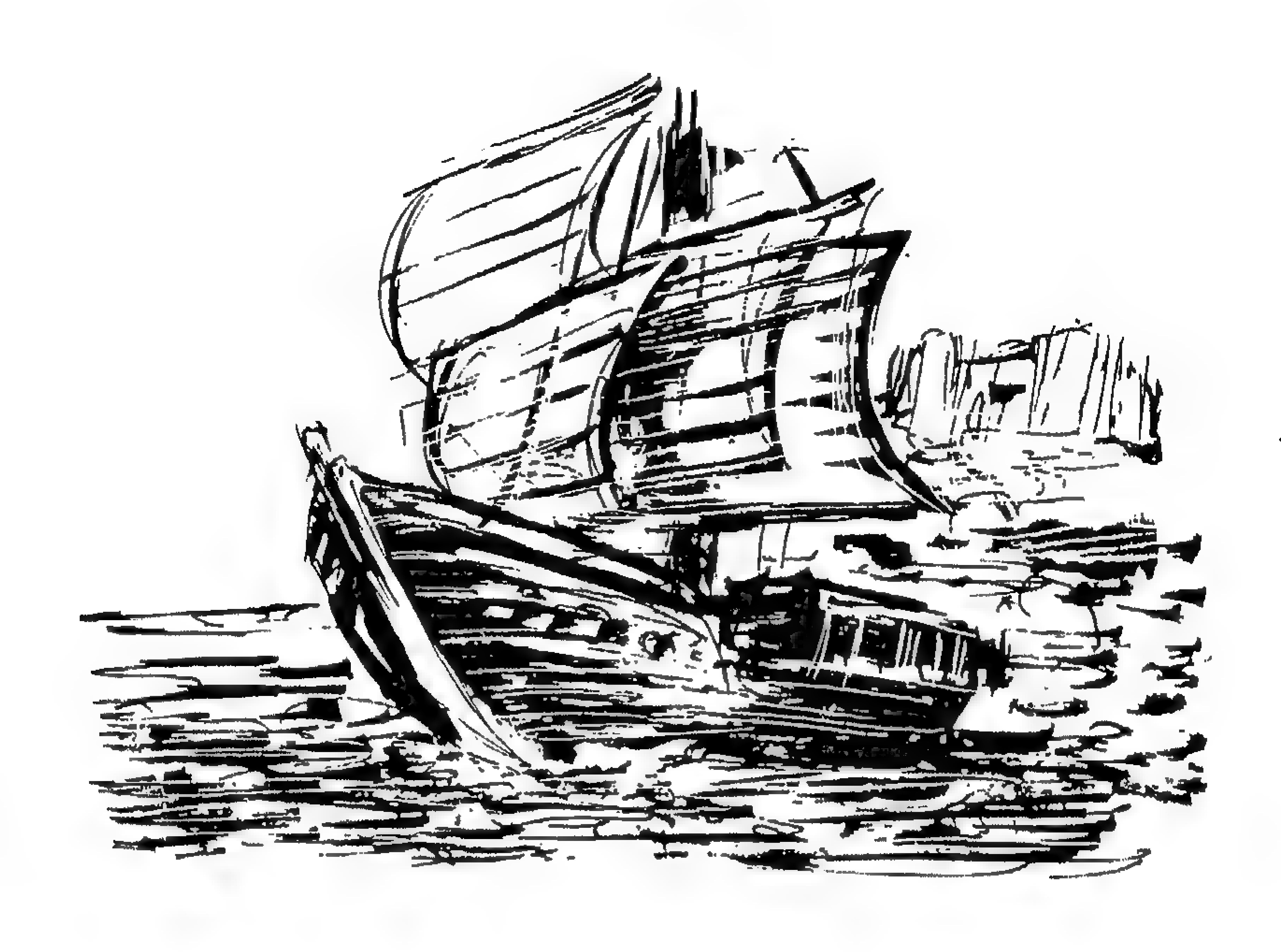
احتلّ البرتغاليّون جزيرةَ « قُمْران » عندَ المدخلِ الجنوبّيِ للبحرِ الأحمر ، وأنزلُوا جيوشاً بسواحِلِ اليمنِ الجنوبِية والغربية ، وباتَ ميناءا : يَنبُع ، وجُدَّة ، مهددّين بالاحتلالِ . وكان الحجازُ تابِعا لمصرَ ، وصارَ طريقُ التجارةِ البحرِى بين مصرَ والهِند ، عبْرَ البحرِ الأحمر والمحيط الهندى ، مهدداً بالتوقّف . حدثَ ذلك فى عامِ ألفٍ وخمسمائةٍ وأربعةَ عشَر ميلادية .

وحضر الحَسنُ استقبالَ قصرِ السلطان لمبعوثٍ (سفيرٍ) هندِىّ ، دخلَ القاهرة ومعهُ فيلانِ ضخمان ، مكسُوّانِ بالمَخْمَلِ (الحرير) الأحمرِ ، هديةً للسلطان ، وأسفرتْ المفاوضاتُ بينَ السلطان والسفيرِ الهندى ، عن إقامةِ مركزِ استخباراتِ مصرِىّ ، بمدينةَ جُدّة ، لمعرفةِ نوايا البرتغاليّين ، وتحركاتِهم البحرية فى البحرِ الأحمر ، والمحيطِ الهندى . وكان السلطانُ مريضا .

وحين شُفِي السلطانُ ، كان الوباءُ قد زالَ ، فأقِيمتِ الأفراحُ بأرجاءِ القاهرة ، واكتَسَى كبارُ الموظفينَ بأوشحَةٍ حريريةٍ صفراء ، ووضعَ أطباءُ السلطانِ على رءُوسهم طيالِس (جمع : طيلس وهو غطاء للرأس) من المخملِ (الحرير) الأحمر ، مزينةً بفراء السمُّور ، وصدحَت الموسيقَى والأناشيدِ عند غُرُوبِ الشمس ، فى ميادينِ القاهرة ، ورقَصَ شعبُها ابتهاجاً بزوالِ الوباءِ ، وشفاءِ السلطان .

وفى القاهرةِ ، تزوّج الحسن ، وعمرُه سبعٌ وعشرُون سنةً ، من مصريةٍ جركسية ، اسمها : « نور » ، وكانتْ أميرةً أرمَلَ (توفّى عنها زوجها الأول) بالغةَ الثراء . وشرَع الحسنُ فى تصدِير السّكرِ من ميناءِ الاسكندرية إلى المغربِ . واعتاد أن يجلِس مع زوجتِه « نور » فى شُرْفةِ بيتٍ أنيقٍ ، يُطِلّ على ميناءِ الاسكندريةِ القديم ، يَرْقُبانِ معاً أطلال مَنارةٍ ، شيدَها يوماً العالمِ « بطليموس » ، ويشاهِدان السفنَ القادمةَ إلى الميناء ، من بلادِ الفلاندر ، وانجلترا ، وبِسْكاية ، والبرتغالِ ، وبوليه ، وصقلية ، وجنْوه ، والبُندِقيةَ ، وبلاد اليونانِ الخاضعةِ آنَذاكَ لحكمِ السلطانِ العثمانى سليمِ الأول ، سلطانِ الأتراك .

وحين انقضَى عاماً النفى ، عَزمَ الحسنُ على العودةِ إلى



فاس ، مع زوجتِه نور ، وكانت قد أنجَبتْ له ابنةً ، أسمياها : « خياة » ، فركبا البحرَ من الاسكندريةِ ، على ظهرِ مركب تجارىّ مُدَجَّجٍ بالسِّلاَح ، خوفاً من غاراتِ قراصِنةِ الفِرنجةِ ، فى البحرِ المتوسط .

ارحل بسرعة

اجتازَ الحسنُ أسوارَ فاس ، فى موكبٍ حافل ، تصدَح حولهُ الموسيقى والأغانى ، ولكنّه سَرَعَان ما عادَ إلى تواضُعِه ،

حين رأى قصراً له ، كان قد شرعَ فى بنائِه ، كانت جدرانُه تغطّيها الأعشاب ، وجوانِبهُ تسرحُ فيها الأفاعِي والحَشرات ، وأمرَ الحسنُ العازفِينَ بالكفّ عن العزفِ والمغنينَ بالتوقّف عنِ الغناءِ .

وفى بيتِ الأهل رحّبت أمه « سَلْمى » بالحسنِ وزوجتِه وعانقَ الحسَن ابنتَه الصغيرةَ « ثروة » ، وعرَف الحسنُ أن أباه قد ودّع الدّنيا قبلَ عام ، فجلسَ حزيناً عليه ، وصاحَتْ به أمه :

ــ ارْحل بسرعةٍ من فاس . فسلطانُ المغرب يطلبُ رأسَ هارون ، وأختِك مريم ، لتمردِهما ضدّه .

وسارعَ الحسن بالرحيل مع « نورٍ » فى ظلامِ الليل ، مصطحباً معه أمه ، وابنَتَيْه : ثروة ، وحياة ، متجهاً صوبَ مدينة « تِلمسان » ، متجنباً الطرقَ التى يتحاربُ فيها جُندُ المِغرب والبُرتغال .

العودة إلى مصر

فى خيمةٍ عسكرية بتلمسَان ، تقابلَ الحسن مع صديقهِ « هارون » ، وقائده « عروج » وقدم هارونُ لعروجٍ صديقَه

الحسن كشاعرٍ وسفير . وتركَ « الحسن » أُمّه وابنتيه عندَ أُختِه مريم ، وركِبَ مع « نور » سفينةً مبحرةً فى البحر المتوسطِ إلى الاسكندرية ، قاصداً أداءَ فريضةِ الحجّ .

وقضَى الحسن ونور ثلاثة أشهر بالاسكندرية ، احتلّ السلطانُ سليم خلالَها مدائنَ : غزّةَ ، وطبريةَ ، ودمشقَ ، وحماة ، وحلَبَ ، وهزَم سلطان مصر « قانصوه الغورى » فى معركة « مَرْج دَابِق » ، وسقطَ « قانصوه » عن فرسِهِ مصاباً بالفَالجِ (الشلل) ، ولم يلبثْ أن صعدتْ روحُه إلى خالِقها . ونهضَ « طومان باى » من بعدِه ، بتجميع قُوى جيشِ عمّه المهزوم ، دفاعاً عن مصر ، لكنّ السلطان « سليم » هزمه ، وقَبضَ عليه ، وشنقه على « باب زويلة » ، ثم عادَ إلى القسطنطينيةِ ، تاركاً حكمَ مصر لأعوانِه الأتراكَ ، والمماليك البكوات .

وأدى الحسن « ونور » فريضةَ الحجّ ، وزارا المدينةَ ، ثم رحلاَ شمالاً إلى تبُوك ، فالعقبة ، فمدينة غزّة ، ومن ساحِل فلسطين ، ركبَ الحسنُ ونور مركباً صغيرا مبحراً إلى تونس ، وكان المركبُ لبحارٍ خبيرٍ ، محبٍّ للتجارة والأسفار ، اسمُه « عباد » . وأنِسَ كلّ من الحسنِ وعبادٍ لصاحبه ، فصارَا

صديقَيْنِ ، وراحاَ يتحدثان طوال الرحلةِ عن أحوالِ العرب والمسلمين ، وأخطارِ العثمانيين والفِرنجة ، حتى وصلاَ إلى جزيرة « جِرْبة » شمالِيّ تونس .

الأسيران

توقفتِ المركبُ لقضاءِ الليل ، والتزودِ بالماءِ والطعام ، ونزلَ الصديقانِ إلى شاطىء الجزيرة يتَنزهَان ، ويسمُران ، وعرفا من السكانِ أن البرتغاليين قد قتلُوا « عروج » ، وعلقُوا رأسَه ذِى اللحية الحمراء بميدان « وهران » . وقلِق الحسنُ على مصيرِ أمّه سلمى ، وأختِهِ مريم وابنتيْه : ثروة وحياة ، وصديقه هارون .

وفى طريقِ العودةِ إلى السفينةِ ، فوجِىء الصديقانِ برجالٍ مسلحين بالسيوفِ ، يهجُمون عليهما فى ظلام الليل ، ويكمِّمُونهما ، ويغمُّون عيونَهما ، ويوثِقُون أيديَهما وأرجُلَهما بالحبالِ ، ثم يحملانِهما إلى حيثُ لايدريان ، فأدركا أنهما قد وقَعاَ أسيريْن فى أيدِى قراصنةِ الفرَنجة .

كان آسرُ الحسنُ وعباد ، هو القرصانُ « بيتْرو بوفاديليا » ، وكان صِقليّا فى الستينَ من عمرِه . وحملتْ سفينة الأسيريْن إلى

ميناءِ « نابولى » ، ثم حملتْهما عربة تجرّها الجيادُ ، ويقودُها « بيترو » إلى مدينة « روما » . وفى رومَا فرَّق « بيتْرو » بين الصدِيقينِ .

ووجَد الحسن نفسه سجيناً فى زنزانةٍ ، مكثَ بها شهوراً وحيداً ، لايسمعُ ضحكةَ حارسٍ ، أو سقوطَ حجرٍ فى نهر « التيبر » ، أو صوتَ مؤذّن يعرفُ منه ليلَه من نهارِه ، ويفتقدُ صديقَه عبّاد ، وزوجتَه نور ، وأسرتَه الصغيرة .

فى الفاتيكان

وذاتَ صباح ، فُتِحتِ الزنزانة ، واقتادَه « بيتْرو » خارجَها ، فبهرَه ضوءُ النهارِ الساطع . وأُرْكِبَ الحسنُ عربةً يقودُها جوادان ، اجتازتْ به أسوارَ الفاتِيكان . وقال « بيتْرو » للحَسنِ :

ـــ ستُقابِل الباباَ « ليوُ العاشر » ، فقدْ أهديْتُك إليه ، تكفيراً عن خطاياى ، فأحسِنْ مخاطبةَ البابا ليو ، إذا كنتَ ترِيدُ أن تظلّ حيا ، وتعيشَ فى رُوما عزيزاً مكرّما .

فى مكتبةِ قصرِ القديس انجلُو الاسطوانّيِ ، رأى الحسن البابا . كان البابا ذا وجهٍ أمردَ (بلا شعر) ، وذقنٍ بغمازةٍ ،

وشفتينِ سمينتينِ ، وصافَحَ البابا بيدٍ ناعمةٍ ملساءَ يدَ الحسنِ . ودارَ الحديث بينَهما عبْرَ مترجمٍ . وأعجِبَ البابا بثقافةِ الحسنِ الواسعةِ ، وحَذَره فى الإجابة ، فقال له :

ــ من اليومِ أنتَ حر فى التجوّل بالفاتيكانِ ورُوما نهاراً ، وعليْك أن تلازِمَ غرفتكَ ليلاً بهذا القصر . وإذا أحسنْتَ التصرف بينَنا سنمنحُك حريتكَ يوما ما .

وفى حدائِقِ الفاتِيكان ، وعلى جدرانِ الكنائس وسقوفِها ، رأى الحسن رسُوماً وتماثيلَ مهِيبة ، ورأى الكرادِلة (جمع : كردينال) ذوِى الثيابِ الحمراء . وبعد أسبوعٍ واحد ، وفى حفلٍ حاشد ، قالَ البابا للحسن :

ــ اليومَ نمنحُك حريتَك أيّها العَربى ، على ألا تغادِرَ رُوما ، ولابلادَنا . وقد نسبْتك إلى أسرَتى ، أسرة : مديتّيشى ، وخلعْتُ عليكَ اسماً جديداً لك هو : ليُون جيوفانى مديتيشى . وخصصنا لك ثلاثةَ معلمينَ من الكرادلة ، ليعلموك اللغاتِ : اللاتينية ، والتركية ، والعِبرية ، والايطالية ، فى مقابلِ أن تعلّمَ العربيةَ بدورِك لسبعةِ طلاب فى كلّ عام . وقد منحناك « دُوكا » ذهبيةً راتباً شهريا لنفقاتِك الشخصية .

كتاب .. وزوجة

خلالَ عامِه الأول ، أتقن الحسن اللغات الأربع ، وعلّم العربيةَ لعشرة طلاب ، كانَ بينَهم طالِب ألمانى اسمُه « هانز » ، وصارَ هو و «هانز » صديقَيْن ، فتعلّم الحسنُ منه الألمانية ، وعرّفه « هانز » إلى فنّ الفنانين : رفايلُّو ، ومايكل أنجلو ، وحدثّه طويلاً عن الرسامين والمثالين فى ايطاليا ؛ وهو يتجولُ به بين الكنائِس ، والآثارِ الرومانية وراءَ الكوليزيه . وأهدَاه البابا كتاباً مطبوعاً بالعربية ، وقال له :

ـــ هذا هُوَ أولُ كتابٍ بالعربية ، يخرُج من أولِ مطبعة فى بلادِنا ، وبلادُك لاتعرفُ المطابعَ بعدُ ، فاحفظْه بعنايةٍ فائقة ، وبوسْعِك ، من اليومِ ، أن تقيمَ بمنزِلٍ خاص بك فى مدينةِ روما .

وقَرأَ الحسنُ على غلافِ الكتابِ عنوانه : « دعاءُ الأيام » . أُنْجِزَ فى مدينةَ « فَانُو » ، فى كنف (رعاية) قداسةِ الباباَ ليو العاشر .

ووجَدَ « هانز » منزلاً له حديقة برُوما ، فانتقلَ لسكناه ، وراح يجُوب مع « هانز » أنحاءَ روما ، ويرى شوارِعَها ،

وحاراتِها ، وأزقّتها ، وحُوَاتها المشعوذين ، وقصورَ الكرادلة الفخمةَ المترفةَ . ودُعِيَ ذاتَ مساء إلى حفلٍ أقيمَ فى كنيسة « سِكِسْتين » ورأى بجانبِ الباباَ فتاةً وسيمة ، وتذكّر الحسن أنه رَآها مع البابا يوماً فى ثيابِ راهبةٍ . وقالَ الباباَ للحَسن :

ـــ هذهِ هى الراهبة « مادلينا » ، وهى يابُنى لم تخلقْ للدير والرهبنة ، وقد رأتْك وأحبتّك ، ويبدُوا أنها خُلِقت لأجلِك ، وإن تزوجتَها أجرَيْنا عليكُما راتباً شهريا .

وقبِلَها الحسنُ زوجةً ، وصحِبها معهُ إلى بيتِه بروما ، لكن سعادتهما لم تدُم لهما سِوَى عام واحد ، فقد تُوُفِّى راعِيهما البابا : ليو العاشر .

وجه عباد

قطعَ الباباَ الجديدُ جميعَ الرواتبِ الجاريةِ من الفاتيكان ، لدعْمِ الحملات الصليبية الاستعمارية على الشرق ، بلْ وفى داخِل أوربا ذاتِها ، وللحدّ من تشهيرِ اللوثَرِيّين ، دعاةِ مذهبِ « مارتن لوثر » البروستانِتى ، الذين يفجرون بمذهبِهم صراعاتٍ شعبيةٍ ودولية حادّة فى أرجاء أوربا ، متأثّرين فى مذهبِهم بالفلسفة العَقْلانية للفيلسوفِ العربى : ابن رشد . وراحَ المئاتُ

من الفنانينَ والأدباءِ والتجار ، يفرون من رُوما ، هرباً من دعوةِ البابا الجديدِ للزهدِ والتقشفِ ، وعدائِه للأدب والفن .

وراحَ الحسن يكسبُ عيشَه فى « روما » صيفاً ، وفى جامعةِ « بولونيا » شتاءً ، من تدريسِ العربيةِ والأدبِ العربى ، ويتنقلُ طوالَ أعوامِه بايطاليا بين المدينتَيْن . وذاتَ يوم عرَضَ عليه الكاردينال « يوليوس » لوحةً للبيع ، وكانتْ اللوحةُ لوجهِ عربِىّ من رسم الفنان « مانولو » . عندئذٍ صاحَ الحسنُ :

ــ هذهِ هى صورةُ صديقِي عباد البحار .

واشترى الحسنُ اللوحةَ من الفنان « مانولو » ، وعرَف منه عنوانَ عبادٍ بمدينة « نابولى » . وقال « مانولو » للحسن :

ــ عباد الآن من أغْنَى صانِعِى السفنِ فى نابولى ، وهو يقضِي الشتاءَ والخريفَ فى حارةٍ بحى « سانتاكوشْيا » ، ويسافرُ دائماً فى الربيعِ والخريف ، مع سفنه ، بين شطآن البحرِ المتوسِّطِ .

ليلة المطر

وكتبَ الحسن رسالةً إلى عباد ، فجاءَ إليه ليلا بعدَ شهرين ، فى عربة يجرّها أربعةُ جياد ، يتبعُه ثلاثة من الخدمِ

النابوليين . وجلَس الصديقانِ للعشاء مع مادلينا . وقال عبادُ للحسن :

ـــ باعنِي آسِرُنا « بيترو » لتاجرٍ من نابُولى ، فخدمتْه بإخلاصٍ فى تجارتِه البحريّة ، فربِح من ورائِي مالاً كثيرا . ولذلك منحنِي حرّيتى ، وأشركنِي فى تجارتِه عبْر البحرِ المتوسط . ولناَ الآنَ فى موانِيه عشرةُ مكاتِبَ تجارية . وأزورُ تونُسَ فى كلّ عام . وأهلُكَ ياصاحبِى مقيمونَ بها الآن . وقد رحلَتْ زوجتُك « نور » عائدةً إلى القسطنطينية ، وتركتْ وراءَها ابنتَك حياةَ مع أُمِّك وأختِك مريم . وصديقُك هارون ذهبَ إلى القسطنطينية ، والتحق بحاشيةِ السلطان .

وكانَ المطرُ يهطل شديداً فى طرقاتِ روما ، وحديقةِ البيت . وحمَّله الحسنُ رسالةً إلى أهلِه بتونس ، وطلبَ منه أن يعرّفهم بأحوالِه فى روما ، وأن يأتِي معهُ من تُونس بأوراقِهِ وكتبه ، حين يعودُ إلى روما . وقال لَه عباد بحُبّ :

ـــ إذا احتجتَ يوماً إلَّى ياصديقى ، فمنزلِي بنابولى مفتوح لك ولأسرتِك ، ومراكبِى قادرةُ على نقلِك إلى أىّ مكان .

عامان فى السجن

كان الحسنُ قد بلغَ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، حين أصدرَ البابا الجديد أمراً بحلقِ كل مدنىٍّ للحيته . واستجابَ أهلُ روما للأمر البابوى ، عدا الحسن وراحَ يتجوّلُ بلحيتِه فى رومَا ، ويجلس بلحيتِهِ فى مكتبةِ الفاتيكان ، ويذهبُ بلحيته إلى جامعةِ « بولونيا » ، وهو يشعرُ بدهشةِ الناسِ من حوله ، وبأنّه مراقبٌ من عيونِ البابا فى الليلِ النهارِ .

ومع الخريفِ ، عاد عباد إلى الحسَن . كان حليقَ اللحية . وكان يصحَبُ معه كتبَ الحسن وأوراقَه . وقال عبادُ للحَسن :

ـــ اطمئِن عَلى أهلِك بتونس ، فصديقك هارونُ يرسِلُ إليهم بالمالِ بانتظامٍ . واعلم أن السلطانَ العثمانى سليم الأولَ قد ماتَ منذُ عامين . وأن « سليمان القانونى » صارَ سلطانا بعده وهو سلطان عجيبٌ حقا ، فقد أطلقَ منِ السجنِ سراحَ الأعيان ، وألحقَهم بحاشيته . وسراحَ المساجين وألحقَهم بجيشه ، وهو الآن مشغولٌ بفتحِ جزرِ البحرِ المتوسط .

وإثْر مغادرةِ عباد بيتَ الحسن بروما ، فوجِىءَ الحسن بجُندِ الفاتيكان يقتحمونَ عليه بيته ، ويفتّشونه ، ووجَدُوا فى عباءَته

منشوراً ضدّ البابا لايعلمُ عنه شيئا ، فقد دَسّه له فى جيبِهِ أحدُ العيون (المخبرين) . وسِيق الحسنُ ليُحبس فى زنزانةٍ بالقصرِ الاسطوانيِ للقدّيس أنجلوُ ، فى يوم الأحد السابع من شهرِ ديسمبر ، عام ألفٍ وخمسمائةٍ واثنينِ وعشرينَ ميلادية .

ودامَ حبْسَ الحسن مدةَ عامين ، أُطلقَ بعدهَما سراحَه ، وكان لايزالُ محتفِظاً بلحيتِه ، فلم يتقدّم أحدٌ لحلْقِها له . وخرج الحسنُ من السجن ، فوجَد أن « بابا » جديداً هو الذى أطلقَ سراحه ، وهو البابَا كليمان السابع .

سفير الفاتيكان

وعادَ الحسن إلى زوجتِه مادلينا ، فوجدَها قد أنجبتْ له ابناً أسمتْه : يوسف ، وصارَ له من العمرِ عامٌ ونصف . ودُعِى الحسنُ لمقابلةِ البابا كليمان ، وقالِ له البابا :

ـــ لقد عينّاك مستشاراً لنا ، وسفيراً فى بلاطِنا . فاستعِدّ للسفرِ إلى مدينةِ « باقية » لِتلتقِى بَهارون باشا ، سفيرِ السلطانِ العثمانى ، أثناءَ مقابلتِه للملك : « فرانسُوا » ملك فرنسا ، وتبذلَ جهدَك مع السفير العثمانى ، لإصلاحِ العلاقاتِ بين الفاتيكان والعثمانيين . وأرجُو ألا يكونَ سجنُك قد أثّر فى روحِك .

فقال لهُ الحَسنُ :

ــ بلْ كان خيراً وبركةً عليّ . فقد وضعْتُ فيه قاموساً للألفاظِ اللاتينية والعربية والعبرية ، التى تدلّ على معنىً واحِدٍ . وألفْت فيه كِتاباً فى النحو والصرف .

وضحِك البابا سعيداً بالحسن . وغادرَ الحسنُ قصرَ الفاتيكان ليستعدّ للسفرِ إلى « باڤيه » ، عبرَ طريقٍ يمرُّ بمدينةِ « بولونيا » ، فى عربةٍ فخمةٍ ، تجرُها الجياد .

وفشلِتَ سَفْرة الحسنِ إلى « باڤية » ، فركب عربتَه عائداً إلى رُوما ، وكان قد بلغ من العمرِ سبعاً وثلاثين سنة . وفى الطريق هبتْ عاصفة ثلجية ، فجمحَتِ (نَفرَت) الجيادُ ، وانقلبتْ العربة ، وكُسِرَ ساقُ الحسن ، فاضطرّ للبقاءِ فى بولُونيا ، فى منزِلٍ قريبٍ من جامعتِها ، وكان الشتاءُ قارسا ، ولحسنِ حظ الحسن ، أنه كانَ يحملُ معه دائماً دفاتِره التى دوّنَ بها ملاحظاتِه ، فانتهزَ فرصةَ مرضه ، وراح يكتبُ طوالَ تسعةَ أشهر موسوعةً ضخمةً عن « وصفِ افريقية » . وكانتْ زوجتُه وابنُه قَد لحقا به مع بدايةِ الربيع ، وبقيا معه إلى نهاية الصيف . وكانَ سعيداً بزيارات أصدقائِه له ، من طلابِ الجامعة البولُونية ، وأساتذتِها .

وصف افريقية

أنجزَ الحسنُ ، فى تسعةِ أشهر ، فى تسعةِ أجزاء ، فى ألفِ صفحةٍ من القطع الكبير ، وباللغةِ الايطالية ، موسوعتَه عن « وصف افريقية والأمور المتعلقة بها » . وقال الحسن لزوجتِه « مادلينا » :

ــ هذه الموسوعة تعادِلُ عندى مقدمةَ ابن خلدون . كتبَ ابنُ خلدون مقدمتَه فى أربعة أشهر ، وكتبت أنا موسوعتِي فى تسعةِ أشهر ، وهى أضعافُ مقدمة ابن خلدون .

فقالتْ له « مادلِينا » :

ــ كتبت موسوعتك بالايطالية ، فكيفَ يقرؤها قومُك ، وهى بغيرِ لغتِهم ؟

وعزَم الحسنُ على ترجمة موسوعته إلى العربية ، إثر عودته إلى روما ، مع نهاية الصيف . وفى روماَ تفرغ الحسن لوضع اللمسات الأخيرة لموسوعته ، وترجمتِها إلى العربية . وكانتْ روما تُعانِى من الهزائمِ ، وانتشارِ الجرائم ، وعُنْفِ الصِّراعاتِ الأوروبية .

.. إلا الكتب

وسعَى الحسنُ حتّى التقَى بصديقِه « هانْز » ، ليساعَده على الهرَب من روما ، التى يحاصِرُها الجند ، مع أسرتِه وكتبِه ، فقالَ له « هانز » بحسم :

ــ خُذْ معَك أسرتَك ، ومالَك ، وثيابَك ، وتُحفَك .. إلا الكتب ، فهى مِلك أوروبا الآن ، ونحنُ بحاجةٍ إليها لنعرفِ أرض الجنوب وأهلَه . ولافرصةَ أمامَك ، ولا أمامَنا ، لنسْخِها لك ، وقد لايكونُ بوسعِى حمايتكَ إذ بقِيتَ لتنسخَها . ولا إخراجَك من روما فى أى وقتٍ آخر .

ورضخ (أطاع) الحسنُ لأمر « هانز » فى رحلةٍ مغامرةٍ إلى نابولى ، بعد أن أودَع كتبَ الحسن ، فى مكتبة الفاتيكان . واستقبل عَبادٌ صديقه الحسنَ وزوجتهَ وابنَه ، وعجَل بالرحيِل معه إلى تونس ، على ظهرِ أجمل السفنِ وأكبرها ، وأكثرِها سلاحاً وذخيرة . وعادَ « هانز » إلى روما .

وفى مكتبةِ الفاتيكان ، راحَ هانز يستعرضُ ، بسعادةٍ ، الكتب التى تركَها الحسن مرغماً وراءه ، وقد دوّن على غلافِها الداخلى تواريخ كتابتها : « تراجِمُ الأطباءِ والفلاسفةِ العرب »



« الفقهُ الإسلامـى أو شريعـةُ محمـد » (١٥٢٧) . « النحو والصرف » (١٥٢٣) . « وصف افريقية والأمورُ الهامةُ بها » (١٥٢٦) « قاموسُ الألفاظ » (١٥٢٦) .

وتوقف هانز عند كتابِ الحسن « وصف افريقية » . كان موسوعة عن ممالكِها وسكانِها ، ولغاتِها ومناخِها ، وزراعتِها وأرضِها ، ومعادِنها وعاداتِها ، وأنهارِها وبحيراتِها ، وجبالِها

وسهولها ، وحكامِها وأزيائِها ، ونظمِها وأمراضِها ، مملكةً مملكةً ، وشعباً شعبا ، وهَمس « هانز » قائلا لنفسه : « انتصرتْ أوربا بأسرها للحسن ، فقد فتحَ لها من حيثُ لايدرِى الطريقَ إلى افريقية » .

شمس شتوية

فى جزيرة « جربة » رست سفينةُ عباد ، وركب الحسنُ وأسرتهُ قاربا صغيرا إلى أرض تونُس ، وركِب عباد فى البر ، جوادا مع جيادِهم ، تتبعُهم بغالُ الحملِ ، واتجهُوا شمالاً على طريقِ القوافلِ ، إلى أن وصلُوا إلى مدينة تونس .

ولم يجدِ الحسنُ أحداً من أهلِه بالمدينة ، فأمه قد ودعَتِ الدنيا ، وأخته قد لحقتْ مع أولادِها بزوجِها هارون ، وابنتاَه : ثروة وحياة ، قد تزوجَتا من ابنيْن لهارُون ، ورحلتا مع الراحلِين . وقال الحسنُ لمادلينا ، وهما جالسان فى ساحةِ بيتٍ تونِسىّ ، فى ضياءِ شمسٍ شتوية :

ـــ هناَ المقام بإذن الله . وهنا سأكتبُ بمشيةِ الله كتاباً آخرَ

عن وصفِ اوروبا ، ولعلّ كتابى « وصف افريقية » أن يصلَ يوماً إلى قومي ، من بعدى .

وعادَ عباد مع سفينتِه إلى « نابولى » ، وبقِي الحسنُ فى تونس وحيدا إلا من زوجتِه وابنه ، حريصاً على ألا يعرفَ عنه أحدٌ شيئا ، ويعزِمُ فى كلّ يوم أن يكتبَ عن « وصف أوروبا » ولايخطّ فى ورقَةٍ عنهَا حرفا . ولايعرِف أحدٌ ، على وجه اليقين ، إن كان وداعُه للدنيا فى تونس ، أو فى فاس ، فى عامِ ألف وخمسمائةٍ وسبعةٍ وثلاثين ، أو فى عامِ ألف وخمسمائةٍ وخمسين ، فقد اختلفَت فى ذلك الروايات والأخبار .

●

فى الغرْبِ ، نُشِر كتابُ « وصف افريقية » بالايطالية عامَ ألفِ وخمسمائةٍ وخمسينَ ميلادية ، وباللاتينية والفرنسيةِ عامَ ألف وخمسمائة وستةٍ وخمسينَ ميلادية ، وبالانجليزية عام ألفِ وستمائة ميلادية ، وبالهولنديةِ عام ألف وستمائة وخمسةٍ وستين ميلادية ، وبالألمانيةِ عامَ ألفِ وستمائةٍ وخمسةٍ ميلادية .

وفى الغربْ ، كتبَ « فيدمانِشْتات » عن الحسن بن محمد الوزان أو « ليون الأفريقى » عامَ ألفِ وخمسمائةِ وخمسةِ

وخمسينَ ميلادية ، ونُشِرَ ماكتبهَ مرةً أخرى ، فى مقدمة للترجمة الانجليزية لكتابِ « وصف افريقية » .

وفى الشرْقِ ، عرَف العربُ قصةَ الحسن الوزان ، وأسماءَ كتبه ، مما كُتِبَ عنه فى الموسُوعات الغربيةّ . وكتبَ عنه القاضِي المغربى « محمد بن المهدى الحجوى » رسالة نشرَها بمدينة الرّباط عام ألفٍ وتسعمائةٍ وخمسةٍ وثلاثين ميلادية ، بعنوانِ : « حياةُ الوزّان الفارسىّ وآثاره » ، وكُتبت عنه مقدمة بالاسبانية ، نُشِرَت مع الترجمةِ الاسبانية لكتاب « وصف افريقية » والتى نُشِرتَ بمدينة « تطوان المغربية » ، تحت رعاية « معهد فرانكو الاسبانى » ، وكُتِبتْ عنه روايةٌ بعنوان « ليو الأفريقى » كتبها بالفرنسية ، ونشرَها فى باريس ، الكاتبُ اللبنانىّ المغترب « أمين المعلوف » ، وقد ترجم هذه الروايةُ إلى العربية « أمين فريحة »

وفُقِدَتِ النسخةُ العربيةُ التى ترجمَها الحسنُ بنفسِه ، لكتاب « وصف افريقية » ، مثلما فُقِدت كتبهُ الأخرَى فى الفقه ، وفى النحوِ الصرف . ولم يبقَ من كتبِهِ فى الغربِ سوَى رسالة كتبهَا باللاتينية ، عن تراجم الأطباء والفلاسفة ، وقد نُشِرت هذه الرسالةُ بمدينةِ « همبرج » عامَ ألفٍ وستمائةٍ وأربعةٍ وستين ميلادية ، ثم أعيدَ نشرُها بعد ثلاثٍ وثمانين سنةً . ولاتزالُ

النسخةُ الأصلية لقاموس الحسنِ للكلمات موجودةً بمكتبة الاسكوريال ، وبخطّ الحسنِ نفسهِ ، دون أن تحظَى بنشْرٍ لها إلى اليَوْم .

وتَبْقى كتبُ هذا العالِم الرحالة « الحسن الوزان » بحاجة إلى ترجمة مابقي منها إلى العربية ، حتى نُعِيدَ لعالِمنا العربى اسمَه العربّى ، ووجهَه العربّى وننقذَه من غربة « ليون الافريقى » ، فقد كانَ عالِماً جغرافيا ، ومؤرخاً رحّالة ، وشاهِداً على عصرِه ، وآخرَ الرحالةِ المسلمينَ العظام .

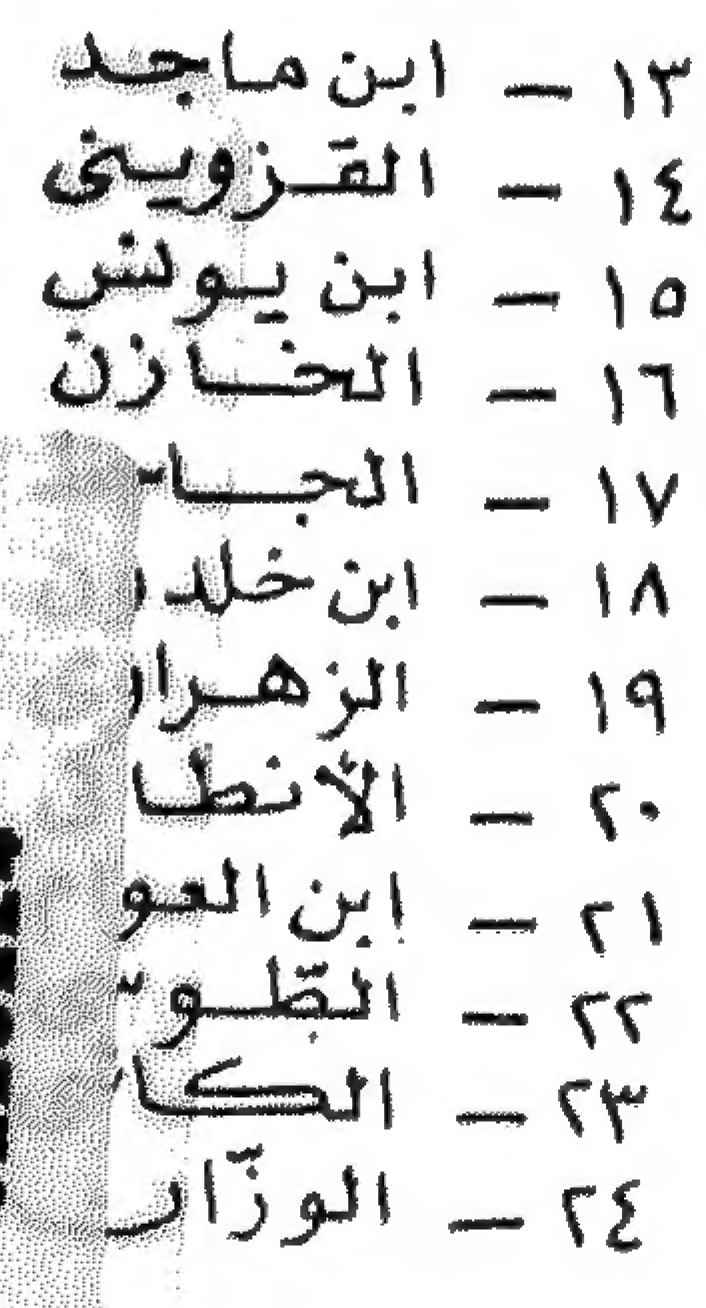
علماء العرب ٢٤

الوَزّان

عالم عربي عاش فى القرن السادس عشر الميلادى. تعلّم فى جامعة القيروان. وجاب ممالك الزنوج بوسط افريقيا. وأسره القراصنة فعاش فى روما والفاتيكان، وعلّم العربية وآدابها فى ايطاليا. وألف كتبًا باللاتينية والايطالية فى النحو والصرف والفقه وتراجم الأطباء والفلاسفة ووضع أول قاموس لغوى بثلاث لغات، وكتب أول موسوعة عالمية عن افريقية فى تسعة أجزاء. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة :





مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر